التصوير فى الفن الإسلامى
(الواسطى - دراسة حالة)

أ.م.د/ سامح مصطفى زكى حسان

أستاذ مساعد – قسم الطباعة والنشر والتغليف، كلية الفنون التطبيقية، جامعة حلوان

الملخص:

عندما ظهر الإسلام فى القرن السابع الميلادى لم يكن فن التصوير العربى ذو ملامح محددة ، بل كانت هناك محاولات فنية متواضعة مأخوذة مباشرة عن الفنون الأخرى، وكان الشعر هو مجال العرب الأول ، إلا أن العقيدة الإسلامية بما اتسمت به من قوة روحانية هائلة فرضت واقعا جديدا ، وكانت لغة القرأن دائما حاضرة فظهرت طرز الكتابة العربية التى أصبحت سمة مميزة للفن الإسلامى، مع سيادة التجريد الزخرفى الذى يتناسب مع جوهر العقيدة ، ولما دخل الإسلام العديد من الدول ظهرت أشكالا جديدة من الفنون وخاصة مع تلك الدول التى لديها حضارات عريقة ، ولم يعد الفن الإسلامى هو فن لدولة أو شعب محدد بل هو فن حضارة تشكلت. ويعد مجال التصوير أحد أوجه الفن الإسلامى الذى لم ينل شهرة واسعة مثلما حظيت العمارة أو فن الخط العربى ، مع أنه لقى اهتماما كبيرا عبر ولايات وعصور مختلفة حتى صارت له أربعة مذاهب وهى المدرسة العربية والفارسية والتركية والمغولية، ويهدف هذا البحث إلى إلقاء الضوء على هذا الفن الذى جعل من المخطوطات مجالا خصبا حيث تمثل التصوير فى صيغة رسوم توضيحية تعبر عن مضمون تلك المخطوطات ، والتى كانت نتاج فنا تطبيقيا خالصا ، حيث يقوم المسئول عليها بعملية تحديد أماكن المتن والصور على الصفحات واختيار المتن الذى يمكن التعبير عنه فنيا ، وقد غطت المخطوطات العديد من المجالات الجادة المختلفة ، وفى هذا البحث يتم إلقاء الضوء على أحد أبرز رموز التصوير الإسلامى وهو الواسطى، الفنان المصور الذى ينتمى إلى القرن الثالث عشر الميلادى، والذى قدم عملا فنيا جسد فيه ملامح التصوير الأسلامى فى هذه الفترة ، والعمل الفنى الأول فى هذا المجال الذى عرف باسم مبدعه .

كلمات مفتاحية

الفن الإسلامى– التصوير فى الفن الإسلامى – مدرسة بغداد– الواسطى

Painting in Islamic art
(Al-wasiti - case study)

dr.Sameh Mostafa Zaki Hassaan

Assistant Professor, Department of Printing,
Publishing and Packaging Faculty of Applied Arts / University of Helwan

Abstract

When Islam emerged in the seventh century the Arabs did not have provided anything noteworthy in the art of Painting But there were modest attempts taken directly from the other arts, The poetry is their first field, However, the Islamic faith has imposed a new reality because of its tremendous spiritual strength,

The language of the Koran being strongly present, so Arabic typography has become a hallmark of Islamic art, and a tendency to abstract decorative, As Islam income of many Arab states and other countries have emerged new forms of art, especially with those countries which have an ancient civilization such as the Persians and the Babylonians, Egyptians.

Islamic art is no longer the art of the State or specific people, it is art of civilization was formed.

painting is one of the aspects of Islamic arts which did not obtain wide acclaim like as architecture or Islamic ornamentation, Although it was the focus of attention of four artistic trends that represented in Arabic, Persian, Turkish and Mughal school.

This research will address one of the most prominent symbols of this trend, Al- Wasiti, Islamic painter who belongs to the thirteenth century AD, and he illustrated the Maqamat of al-Ḥariri, The 96 illustrations are of outstanding quality with fine composition, expressive figures. They produced the 13th-century life and are remarkably satisfying as storybook illustrations.

and It was the first work in the Arab Paintings known by its creator.

Keywords

Islamic Art- Painting in Islamic Art- Baghdad school - Al-wasiti

DOI:10.12816/0036899

مشكلة البحث

يمتاز الفن الإسلامى بأنه لم يكن قاصرا على المجال الدينى فقط ، بل امتد ليشمل الكثير من مناحى الحياة ، إنه فنا تطبيقيا بإمتياز، وكانت العمارة الإسلامية والخط العربى من أكثر الأشكال المعروفة عنه ، فضلا عن أعمال الخزف والزجاج والمعادن والنسيج ، ويعد مجال التصوير من المجالات التى تطرق إليها الفن الإسلامى أيضا ولكنه لم يلق اهتماما كبيرا من قبل الباحثين ، ربما لإنه على عكس أنواع الفنون الإسلامية الأخرى كانت الكائنات الحية (الأدمية والحيوانية) هى مادته الخام الأساسية ، وهو ما قد يتعارض مع ماعرف عن الإسلام من كره لتمثيل الكائنات الحية ، إلا أن صفحات المخطوطات شهدت من المحتوى ما يتماشى مع طبيعة الشريعة الإسلامية من اهتمام بالعلم والمعرفة .

هدف البحث

يهدف البحث إلى تسليط الضوء على التصوير الإسلامى ، وعلى الأخص الرسوم المصاحبة للمخطوطات ، والتى قدمتها مدرسة بغداد متمثلة فى رسوم الواسطى ، والتى تميزت بشخصية خاصة ، ولم يلتفت الكثير إلى أهميتها وامكانية الإستفادة منها حديثا ، مع أن العالم الغربى –والذى يسير الفنان العربى دوما ورائه – وصل الأن إلى المرحلة التجريدية فى الرسوم عبر كافة الوسائط ، ويمكن لهذا الفنان إذا أراد أن يستفيد من تلك الخبرات المتراكمة ولكن بأسلوب يتماشى مع العصر ، وربما كان الفنان الجزائرى محمد راسم (1896–1975) هو أكثر الفنانين العرب فى العصر الحديث الذى تخصص فى هذا النوع من الفن مبتعدا عن الأساليب الغربية ، إنه معين لاينضب والواسطى ومدرسة بغداد هى الأقدم زمنيا والأقرب عربيا .

أولا : الفن الإسلامى :

1–1 الفن والدين : يقترب الفن من الدين فى كونه عنصرا محفزا للإنسان ، فهو يرضى الجانب الوجدانى بداخله ، ومن خلاله يمكن للإنسان أن يقترب من فهمه للوجود وعمق نظرته إلى الكون ، وقد تعامل معه المفكرون وعلماء الجمال على أنه – وهو الفعل الخلاق– تعبير عن حالة ذهنية أو عاطفية أو روحية مع وضع الإطار الزمنى والمكانى فى عين الإعتبار. لقد كان الدين يمثل دوما نقطة تحول كبرى فى الحضارات الإنسانية، ومن ثم حظى دوما باهتمام علماء الجمال والفنانين ، وكان محركا أساسيا وخلاقا لكثير من النماذج الفنية التى انتجها الإنسان من موسيقى ونحت وتصوير وعمارة وغيرها ، والفن يشبه الدين فى كونه يسلط الضوء على الجانب الوجدانى من الإنسان ، وفى تأثيره الدائم على الإنسان على مدى العصور. (1)

2–1 بدايات الفن الإسلامى : على الرغم من وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم (632 م–11هـ) إلا أن الخلفاء الراشدون استمروا فى نشر رسالة الإسلام الذى انتقل إلى مدن البحر المتوسط وإيران، وامتلك العرب مصر وفلسطين وسوريا بعد ان كانت فى قبضة الإمبراطورية البيزنطية، وكذلك العراق وإيران اللتان كانتا فى قلب الإمبراطورية الساسانية ، وعمل الإسلام على ظهور مجتمعات دينية ثقافية وإنشاء إمبراطورية عالمية.

وبينما استغرق تكوين اللغة الفنية الإسلامية المميزة عدة قرون، فإن البذور قد تم زرعها أثناء حياة الرسول، عندما ظهر فن الخط العربى من أجل كتابة القرآن الكريم والتعبير عن الوحى المنزل من السماء، وقد صار بمرور الوقت من عناصر الزخرفة الإسلامية ، وبالنسبة للفن المعمارى فقد تحول منزل الرسول فى المدينة– بعد الهجرة– إلى مركز للمجتمع الإسلامى، وصار هو النموذج الأول للمسجد . (2) ولا ينحصر مصطلح الفن الإسلامى على الفن الذى يخدم العقيدة الإسلامية والمتمثل فى المساجد فقط ، ولكنه يشمل أنواع الفنون والعمارة التى ظهرت فى البلاد التى حكمها المسلمون، أو تلك التى كانت مقدمة للرعاة المسلمون، أو التى انتجها الفنانون المسلمون. إن الفن الإسلامى لم يكن قاصرا على الأعمال الدينية فقط ولكنه كان طريقة حياة ، فقد عزز الإسلام من تطوير ثقافة مميزة مع لغة فنية ذات طبيعة خاصة والتى انعكست على الفنون والهندسة المعمارية فى جميع أنحاء العالم الإسلامى. (3)

وقد تعددت فروعه ، ونال بعضها اهتماما ملحوظا مثل الخط العربى ، الذى كان رافدا أساسيا من روافد الفن الإسلامى ، إنه فنا زخرفيا عالى القيمة وصاحب العديد من الأعمال الفنية الأخرى ، وبالطبع حظيت العمارة الإسلامية باهتمام بالغ لارتباطها دوما

بالمساجد ، كما كانت المخطوطات مجالا فنيا خصبا ، أما النماذج العضوية والهندسية فقد كانت هى مادة الفنان الأساسية ، وعلى الطرف المقابل تراجع فنا التصوير والنحت كثيرا فى الفن الإسلامى ، وكان من المحظور تصوير الكائنات البشرية فى الأعمال الدينية .

وقد اتصف الفن الإسلامى دوما بالتميز والحيوية ، وكان ذو صيغة جمالية تتجاوز الزمان والمكان ، فضلا عن اختلافات الثقافات واللغة. وهو يمتلك شخصية واضحة عامة بغض النظر عن الدولة أو العصر الذى ظهر به ، وهذا لا يمنع من وجود بعض السمات الإقليمية والتأثيرات القوية والمستمدة من ثقافات أخرى يمكن ملاحظتها .

1-3 الفلسفة الروحية للفن الإسلامى : يعكس الفن نظرة ما للعالم المحيط ، ويسعى الفن الإسلامى فى جميع فروعه -حتى غير الدينية منها- إلى تصوير جوهر الأشياء وليس شكلها الخارجى ، وقد وضع العالم الغيبى نصب أعينه ، فالحقيقة عند المسلم تبدأ من الله ، إن الله سبحانه وتعالى هو محور حياة المسلم وتطلعاته ، ولذلك يكون بديهيا أن ينصب تركيز الفنان على التمثيل الروحى للأشياء والكائنات وليس على الصفات المادية . فالفنان المسلم لا يحاول أن يضاهى الطبيعة كما هى ، ولكنه يحاول نقل ما تمثله ، وهو مايجعل الفنان أثناء عمله يقترب من الله ، ولذلك يلعب الجانب الهندسى دورا كبيرا فى الفن الإسلامى فهو يعكس لغة الكون ويشجع على التفكير فى الحياة وعظمة الخلق ، فالأشكال والعلاقات الهندسية فى الفن الإسلامى تعبر عن معنى أبعد بكثير من الشكل المادى ، فالدائرة على سبيل المثال بشكلها غير المحدد ببداية أو نهاية تمثل اللانهائية ، والله سبحانه وتعالى غير محدود ، وكذلك التصميمات الهندسية المعقدة التى تعطى إنطباعا بالتكرار اللانهائى ، قد تكون تعبيرا عن فكرة الطبيعة اللانهائية للخالق سبحانه وتعالى .

وفى كل أشكال الفن الإسلامى يستحضر الفنان قوة وعظمة الله ، ومن طاقته الخلاقة التى وهبها للإنسان يمكن خلق أشكال الفنون المختلفة ، حيث يضع الله وهو الجمال المطلق والحاضر فى كل مكان نصب أعينه ، والقرآن الكريم وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام هى المرجعية الأولى ، والفنان لايتعامل حرفيا مع الأيات ، فحين يذكر الله سبحانه وتعالى على العرش لايؤخذ ذلك حرفيا ، حيث أنعم سبحانه على الإنسان بالقدرة على التصور والخيال . (4)

إن الرؤية والفهم الدينى الذى جاء به الإسلام يشكل المنطلق أو الفلسفة الفنية والفلسفة الجمالية التى ينحدر منها الفن الإسلامى فى كل تفاصيله ، لذلك تبدو العلاقة بين الفن والدين علاقة فلسفية عقلانية صوفية وإيمانية ، فالتوحيد الذى دعا إليه الإسلام كدين ، يترجمه الفن الإسلامى إلى لغة فنية مذهلة ، حيث يتحول نداء التوحيد إلى نظام شامل وفلسفة محكمة تحكم كل شئ الخط واللون والمساحة والعلاقة القائمة بينها ، إن الألف فى الخط العربى هى الواحد الذى ينظم سائر الحروف فى شكلها وطولها وعرضها وانحنائها أو دورانها ، وستكون العلاقة بين نقطة الدائرة وبين نقاط محيط هذه الدائرة كالعلاقة بين الرب والعبد ، فالرب هو نقطة مركز دائرة الغيب ، ومركز دائرة الوجود ، والإنسان نقطة على محيط دائرة الوجود يدور حول نقطة المركز، الذى من دونها لا وجود للمحيط . (5)

فالفن الإسلامى بما يحمله من روحانية يعد من أنبل المحاولات الإنسانية فى سبيل التغلب على العرضى والمشكوك فيه والعابر من الحياة الدنيوية ، فكان فنا تفاؤليا يجسد انجذاب الإنسان نحو المطلق وذلك من خلال زخارفه اللانهائية ، فلكل شئ فيه دلالته الروحية ومعناه العميق ، حيث تكرار الوحدات الفنية يعطى إيقاعا منظما ومتجانسا لتجسيد فكرة اللانهائى المتجاوز للمكان والمطلق الذى تهفو إليه النفوس . (6)

1-4 أهمية تسليط الضوء على الفن الإسلامى من الزاوية الحضارية : يرى Richard Ettinghausen وهو من أهم العلماء المتخصصين فى تاريخ الفن الإسلامى فى الولايات المتحدة أن " الفن الإسلامى يمكن أن يلعب دورا هاما ، فهو الانجاز الثقافى الذى يتعامل معه العالم الغربى وعلى نطاق واسع بالتقدير والإحترام ، إنه يعوض التأخر العلمى والتكنولوجى الذى يعانى منه العالم الإسلامى اليوم ، وهو أمر لايعوض بالأموال ولا الموقع الإستراتيجى ، فالفن يعد دائما سفيرا وممثلا جيدا . ومن ثم فإن دراسته تعد من الأمور شديدة الإيجابية. (7)

1-5 الفن الإسلامى من منظور غربى : ارتبطت فترة العصور الوسطى medieval period فى الأذهان بالحروب الصليبية ، إلا أنها اتسمت أيضا بتبادل الأفكار والمنتجات بين الشرق والغرب ، حيث شهدت كلتا الحضارتين الإسلامية والمسيحية كثير من الصراعات الداخلية والتحولات الكبرى خلال تلك الأعوام ، ، كما تكونت الولايات الإسلامية المختلفة وذلك على الرغم من أن الخلافة العباسية لم تحل بشكل كامل حتى 1258.(8) وفى العصور الوسطى المبكرة تعرفت أوروبا على منتجات الفن الإسلامى ، عند عودة المحابين أثناء الحروب الصليبية حاملين بعض منها أو تلك التى صنعها العرب فى صقلية وأسبانيا وقد لاقت الإعجاب والتقليد ، وشكلت جزء من الثقافة المادية فى تلك الأيام ، كما شكلت الكتب العلمية الإسلامية أساسا لتطور العلم الغربى . (9) ونتيجة للحروب الصليبية كان النظر إلى الفن الإسلامى ممتزجا بالكراهية ولكن تلك النظرة تغيرت بداية من منتصف القرن السابع عشر عندما رأى الغرب المبانى المميزة فى إيران والهند المغولية ، وعند بداية ترجمة الأعمال الأدبية الفارسية والتى أثرت فى الأدب الكلاسيكى الألمانى ، كما أن المنمنمات الهندية قد تركت لمسة فنيا على فنان كبير مثل رمبرانت ، وكان السجاد الفارسى على قمة الهدايا المقدمة للأمراء والأميرات ، وانحصر تأثير الفن الأوروبى على الفنانين المغول المسلمين .

ومن الملاحظ أن الذين اعتادوا على الشكل الفنى الغربى سواء كان فى الأدب أو الموسيقى أو الفنون الجميلة يجدون بعض الصعوبة فى تقبل وتقدير هذا الفن . فالمبانى تبدو فى التصوير الإسلامى بدون تكوين معمارى واضح ، وتم عرض الأماكن وفقا للإحتياجات اليومية البسيطة ، مما ترتب عليه أن التفاصيل والحقائق الكثيرة التى يقدمها المؤرخين لاتجتمع على مفهوم موحد . إن الكاتب المسلم يفضل النموذج النسجى carpetlike حيث يضيف لون إلى أخر، وعنصر بصرى motif إلى أخر ، مما ينتج عنه أن المتلقى لا يفهم المعنى ولا يرى نهاية القطعة إلا من مسافة معينة .

إن بعض الغربيين يرون الفن الإسلامى مختلف عن غيره من الثقافات الأخرى فى الشكل (الهيئة) والخامات وكذلك الموضوع والمعنى ، فقد يرى البعض منهم أن الفنون الشرقية تهتم على عكس الفنون الغربية باللون ويغلب عليها الطابع العاطفى ، بل تمادى البعض ووصفها بالفن الأنثوى (10) ، على عكس الفن الغربى الذى يغلب عليه الجانب الفكرى والذكورى والمهتم بالشكل ، وهو ما يعكس نظرة غربية للفن الإسلامى الذى لاينقصه الطابع الفكرى حتى فى أبسط أشكاله .

1-6 الزخرفة الإسلامية : مثل معظم الديانات السماوية ، لم تكن الفنون الجميلة المتعارف عليها هى غاية الدين الإسلامى ، فهو يحظر تمثيل الكائنات الحية ، وهو أمر وضح فى الأحاديث الشريفة أكثر مما هو عليه فى القرآن الكريم ، ولذلك تمثلت التقاليد الفنية الإسلامية فى فن مثل الخط العربى Calligraphy ، إنه السمة المميزة للفن الإسلامى ككل ، حيث اعتبرت الكلمة مصدرا أساسيا للوحى الإلهى ، كما كان الاهتمام طاغيا فى فن الأرابيسك Arabesque ، سواء كان متمثلا فى استخدام العناصر العضوية أو الهندسية ، حيث تتضافر الزهرة والورقة معا بدون تحديد البداية أو النهاية ، كما أن البعد عن المساحات المصمتة من سمات الفن الإسلامى ، وإلقاء نظرة على الزخارف التى تغطى جدران المساجد أو المخطوطات أو المنسوجات والتى تمتد بشكل لانهائى يؤكد هذا . (11)

ومثلما يجسد الدين الإسلامى طريقة للحياة، ويمثل قوة تماسك كبيرة بين شعوب مختلفة عرقيا وثقافيا، فإن الفن المنتج من وإلى المجتمعات الإسلامية لديه خصائص وهوية موحدة ، ربما كانت الزخرفة من أهم هذه السمات، والتى تم استخدامها مع كافة الأشكال الفنية الإسلامية : الخط، الأنماط النباتية ، الأنماط الهندسية ، وحتى مع تصوير الكائنات الحية .

1-7 التكوين النسجى للفن الإسلامى : يمكن القول أن الفن الإسلامى هو أقرب إلى النمط النسجى المتشابك carpetlike أكثر مما ينتمى إإلى التكوين المعمارى "architectural" formation ، فمثلا لا يكون الحكم على القصيدة العربية أو الفارسية على أنها وحدة مغلقة على نفسها ، ولكن على الأبيات المكونة لها ، ولا يكون الهدف هو نقل شعور شخصى عميق بل الاتقان الشديد للقواعد التقليدية والاستعارات الموروثة ، والتى من خلالها يمكن إضافة صور جديدة ، إن شخصية الشاعر يمكن رؤيتها بوضوح من خلال التلاعب فى طريقة التعبير والإيقاع واستخدام استعارات مفضلة ومحددة ، وهو يشبه الحال عند التعرف على شخصية رسام المنمنمات miniature painter ، وذلك من خلال الفحص الدقيق للتفاصيل أو طريقة تلوين عنصر (صخرة مثلا) أو

الدرجات الظلية المستخدمة لتلوين عمامة مرسومة ، وهو الأمر الذى ينطبق أيضا على الأرابيسك الذى خضع لقواعد رياضية دقيقة حتى وصل إلى أشكال هندسية تتصف بالكمال . (12)

ثانيا : التصوير الإسلامى :

حكم الإسلام مساحات جغرافية واسعة على مدى زمنى طويل، ولذلك فقد تأثر بالكثير من الأنماط الإقليمية بل وحتى القومية ، وعلى الرغم من هذا فقد ظل الفن الإسلامى محتفظا بهويته الفريدة وجودته الذاتية ، وكانت لدى المناطق التى فتحها الإسلام تقاليدها الفنية الخاصة بها، وخصوصا البيزنطية والساسانية ، وقد استمر العمل وفقا لهذه التقاليد ولكنها كانت هذه المرة مقدمة للرعاة المسلمين، حتى المعالم الدينية التى أقيمت تحت رعاية الدولة الأموية والتى تتصف بوظائف ودلالات واضحة مثل مسجد قبة الصخرة فى مدينة القدس تأثرت بهذا المزج فى العناصر اليونانية- الرومانية، البيزنطية والساسانية ، ولكن بشكل تدريجى وتحت العقيدة الإسلامية والدولة الوليدة بدأ الفن الإسلامى فى الظهور. (13)

2-1 تأثر الفن الإسلامى بالفنون السابقة : تعد فترة الخلافة الأموية (661-749 ميلادية/41-132 هجرية) هى فترة التكوين فى الفن الإسلامى، ومن ضمن الطرق المتبعة فى تصنيف الفن الإسلامى فى متحف المتروبوليتان ارجاع الفن إلى الدولة الحاكمة عندئذ، وهو التصنيف الذى يضع التسلسل الأتى: الدولة الأموية ، ثم الدولة العباسية والتى حكمت ولايات موحدة وعلى نطاق واسع ، حتى الوصول إلى ولايات أكثر إقليمية مثل الصفوية والعثمانية والمغولية. (14) وقد عمل خلفاء الدولة الأموية على جلب مواد البناء والأيدى العاملة من الولايات المجاورة لإقامة المدن الجديدة ، وإنشاء القصور والمساجد فاستعانوا بعمال من سوريا وبيزنطة لبناء الجامع الأموى وتجميله بالفيسفاء ، وتشهد بعض الآثار المعمارية الإسلامية على التأثير القوى للفن البيزنطى والساسانى خاصة فى فسيفساء قبة الصخرة ببيت المقدس ، وواجهة قصر المشتى التى ترجع إلى القرن الثامن كما كان هناك قصر (قصير) عمرة وهو قصر صغير ينطوى على آية فى الفن الإسلامى . (15)

ويرى الدكتور جمال محرز أن أقدم الرسوم الإسلامية المبكرة تدل على أن العرب اعتمدوا على الحضارات السابقة فالتصوير العراقى والإيرانى مثلا كان شديد الصلة بالتصوير الساسانى الذى كان موجودا إلى جانب البيزنطى أثناء الإمبراطورية الإسلامية المبكرة ، ومن هذين الفنين أخذ العرب والمسلمون بعض الأساليب المستخدمة فى الرسوم الجدارية والمخطوطات وأخضعوها إلى توجهات جديدة ، كما أن كثيرا من الخلفاء المسلمين أرسلوا بعوثا إلى الولايات البيزنطية لجمع المخطوطات الأغريقية وترجمتها ، وتعد أقدم المخطوطات العربية التى وصلت إلينا إلى أواخر القرن السادس الهجرى ، أما الرسوم الجدارية الإسلامية فتعود إلى القرن الثانى الهجرى . (16)

والخلاصة أن التصوير العربي نشأ في أول عهده متأثرا بفنون الحضارات السابقة له، فقد بدا تأثير الفن الهيليني البيزنطي واضحا في الشام، أما في العراق فقد كان تأثير الفن الساساني جليا. ويمكننا الإشارة إلي أن بعض المصورين قد رسموا صورا لبعض الحوادث في السيرة كميلاد النبّي ومقابلته للراهب بحيرا في الشام ووضع الحجر الأسود في الكعبة بيد النبّي، والهجرة والإسراء والمعراج وتكسير النبّي للأصنام ولكن هذه الصور نادرة وليست بذات قيمة فنية أو دينية. (17)

2-2 تحريم التصوير : لا توجد إشارات صريحة عن تحريم فن التصوير فى القرآن الكريم، إلا أن الأمر يختلف تماما مع الأحاديث النبوية الشريفة، حيث توجد بها أوامر واضحة تنهى عن صناعة التماثيل وعن تصوير كل مافيه من روح سواء كان إنسانا أو حيوانا أو طيرا، فى حين كانت هناك إجازة لتصوير ماليس فيه روح كالأشجار، ومن الأحاديث المذكورة فى هذا الشأن حديث ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (من صور صورة فى الدنيا كلف يوم القيامة أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ) ، كما إن الحديث الشريف الذى يقول (إن أشد الناس عذاباً عند الله المصورون) وضع إشارة واضحة بعدم الاقتراب من هذا المجال، فهو حديث يحذر المصورين من تقليد خلق الله عز وجل يوم القيامة.

2-3 الميل إلى التجريد : مع انتشار الإسلام خارج الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى فإن التقاليد الفنية الخاصة بتصوير الكائنات الحية للولايات الإسلامية الجديدة أثرت بشكل عميق على مسار الفن الإسلامى ، لقد شملت الزخرفة فى الفن الإسلامى تصوير الكائنات الحية والمستمدة من مصادر متنوعة ، وعلى الرغم من أن الابتعاد عن تصوير الكائنات البشرية والحيوانية قد

تحققت فى الفنون ذات الأغراض الدينية وكذلك مع الهندسة المعمارية إلا أن المجال الدنيوى قد شهد قدرا من الإزدهار لهذا النوع من الفن عبر معظم الثقافات الإسلامية تقريبا، إن تلك المقاومة تنبع من الاعتقاد بإن الخلق هو فعل يتعلق بالله وحده ، ومن ثم فإن الأمر يشوبه الكثير من الجدل عند الحديث عن الصورة والمصورين ، ونتيجة لهذا السبب كانت الكائنات الحية تصور بشكل تجريدى خاص وغير مجسد ، بل حدث له فى بعض الحالات نوع من التشويه ، ومثلما جرت الأمور مع أشكال الزخرفة الإسلامية تعامل الفنانون مع الأشكال البشرية والحيوانية معاملة فنية خاصة مما نتج عنه تصميمات قائمة على هذه الأشكال. (18)

لقد كان التجريد في الفترة الأولى منهجاً يفرض من نفسه، لأن تلك الفترة التجريدية الأولى هي الضامنة لعدم العودة إلى تجسيد الأجساد نباتية أو حيوانية أو بشرية ، والاكتفاء بالنظر على أنها منتجات فنية تحاكي فيها الطبيعة محاكاة مباشرة دون أن تقترن بردة وثنية يتعبد فيها لهذه الأصنام التى صنعها الإنسان . (19)

وقد احجم الكثير من الفنانين عن الدخول فى مجال التصوير ، ومن أقدم عليه لم يتطرق إلى الموضوعات الدينية ، ولكن مع انهيار الدولة العباسية فى منتصف القرن الثالث عشر اتجه بعض الفنانون إلى التصوير الدينى دون التوقيع بأسمائهم ، ولكن بقيت المساجد والمصاحف لهما قداسة خاصة ولم يقترب منهما المصور المسلم، باستثناء بعض المزارت الشيعية فى إيران، وانحصر فن التصوير بين جدران القصور، ولم يصطبغ بالصبغة التعليمية التى اتسم بها التصوير المسيحى الذى كان يخاطب من لا يعرفون القراءة والكتابة، كما ظهر بين ثنايا المخطوطات، وكانت المخطوطات المصورة وقفا على الرؤساء والأمراء وعلية القوم وكبار العلماء والأدباء نظرا لارتفاع تكلفتها. (20) . إن الحديث حول تحريم التصوير جعل هناك تحفظا نحوه ، وهو ماترتب عليه أن التصوير الإسلامى لم يستخدم مثل نظيره المسيحى لنشر التعاليم الدينية على سبيل المثال كما أن المصاحف والأثاث قد خلت من الصور والرسوم ، واختفت اللوحات والتماثيل من المؤلفات الأدبية والعلمية والتاريخية . (21)

فقد كان للتصوير فى الدين المسيحى مكانة رفيعة " وله حضوره القوي في الكنائس المزينة بتصاوير وأيقونات عن حياة المسيح والقديسين، لم تكن للتصوير الإسلامي صلة بالدين الإسلامي إذ تخلو المساجد من الصور، بل إن الفقهاء لا يثمنون عمل المصورين ولا يقدرون مواهبهم الفنية ". (22) فالفنان فى الحالة الأولى " هناك اتصال وثيق بين الكنيسة وبينه .

2-4 أسباب أخرى لابتعاد الفنان العربى المسلم عن مجال التصوير : يرى الدكتور ثروت عكاشة فى مقدمة كتابه (موسوعة التصوير الإسلامى) أن ابتعاد العرب عن مجال التصوير ليس بسبب التعاليم الدينية فقط ، ودليله على ذلك عدم وجود أى أثر قديم يعود إلى الفترة السابقة للإسلام ، وأن العرب أبدوا قدرا كبيرا من التحفظ أمامه سواء من أسلم منهم أو من بقى على دينه السابق ، وهو موقف يراه نابعا من البيئة وحدها، يؤكده إقبال غيرهم من المسلمين غير العرب على فن التصوير، وخاصة فى فارس وتركيا العثمانية ودول المغول فى الهند. (23)

ويدعم أبوصالح الألفى فى كتابه الفن الإسلامى (24) هذا الرأى "كان رسم الكائنات الحية شائعا فى الوطن العربى قبل الإسلام وكان يبتعد عن المحاكاة أو يقترب منها طبقا للظروف المختلفة التى تكون سائدة . ولكنه لم يستهدف المحاكاة الحرفية التى نراها فى الفن الإغريقى والرومانى ثم فى عصر النهضة فى أوروبا ، لاختلاف أساسى فى الهدف والغاية الاجتماعية من الفن ، بل إن الأقاليم العربية فى فترة النفوذ الإغريقى حرصت على التخلص من سيطرة الفن الإغريقى والابتعاد عن أساليبه فى تصوير الكائنات الحية والعناصر النباتية" .

ويشير أبوصالح إلى الرأى الذى توصل إليه الدكتور زكى محمد حسن فى كتابه التصوير عند العرب إن انصراف المسلمين عن تصوير الإنسان والحيوان كان حلقة طبيعية من سلسلة تطور الفن فى الشرق الأدنى ، وأن الفن المسيحى فى هذه الأقاليم قد مهد لتلك الحركة بالبعد عن الأصول الإغريقية . (25) ويؤكد الدكتور ثروت عكاشة على بعد العرب عن التصوير قبل الإسلام عندما تحدث عن وجود رسوم على جدران الكعبة وتماثيل بها " فإن هذا لا يعنى أن العرب قد نحتوا هذه أو أبدعوا تلك، فثمة مصادر شتى تتحدث بأن الروم كانوا يحملون التماثيل الصغيرة المصنوعة فى الإسكندرية إلى الجزيرة العربية فيما بين القرنين الثانى والسادس الميلاديين، كما تتحدث عن استقدام سادة قريش لفنانين من الحبشة لتزويق الكعبة ورسم صور الأنبياء – الذين كان من

بينهم إبراهيم وعيسى ومريم– وهو ماذكره الأزرقى فى كتابه أخبار مكة. وأغلب الظن أن العرب لم يساهموا فى هذه الأعمال الفنية إلا بقدر ضئيل لا يتجاوز حد التقليد أو التنفيذ. (26)

وعلى عكس هذا الرأى فإن الدكتور أبو الحمد يرى أن العرب عرفوا التصوير قبل الإسلام ، وذلك بناء على عدة شواهد منها الموقع الجغرافى الفريد للجزيرة العربية فهو شاهدا قويا على الاحتكاك المباشر بفنون التصوير النابعة من الحضارات الرومانية والبيزنطية (شمال غرب الجزيرة العربية) وكذلك الحضارة الساسانية (شمال شرق الجزيرة) . كما أن القوافل التجارية والأسواق اتاحت هى الأخرى فرصة جيدة للإحتكاك ، كما أن هناك دليل مادى يتمثل فى تداول النقود المصورة ، التى تحمل صور الملوك الساسانيين والأباطرة البيزنطيين (27) وربما يؤكد هذا الرأى على معرفة العرب بفن التصوير قبل الإسلام دون ممارسة فعلية له.

2–5 التصوير من الزاوية الدينية : أفتى الإمام محمد عبده بشأن المصورين فى بداية القرن العشرين أن «الأحاديث الخاصة بهم جاءت أيام الوثنيَّة، وكانت الصور تتخذ في ذلك العهد لسببين : اللهو والتبرك بمثال من ترسم صورته من الصالحين. والأول مما يبغض الإسلام، والثاني مما جاء الإسلام لمحوه ، والمصور في الحالين شاغل عن الله ، أو ممهد للإشراك به، فإذا زال هذان العارضان، وقصدت الفائدة ، كان تصوير الأشخاص بمنزلة تصوير النبات والشجر في المصنوعات كما في حواشي المصاحف وأوائل السور، وأن الشريعة الإسلاميَّة أبعد من أن تحرم وسيلة من أفضل وسائل العلم، بعد تحقيق أنه لا خطر فيها على الدين، لا من جهة العقيدة ولا من جهة العمل. (28)

2–6 أهمية التصوير الإسلامى من الناحية التسجيلية : يلعب التصوير الإسلامى دورا فريدا من نوعه فهو " يمدنا بلمحة قيمة غاية فى الأهمية عن الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية خلال العصور الإسلامية فى تلك الأقطار المترامية فى المشرق والمغرب الإسلامى، ذلك أن الكثير من المناظر والمشاهد التصويرية التى وردت فى الصور الجدارية أو صور المخطوطات الإسلامية إنما هى تسجيل للبيئة العربية والإسلامية ومايسودها من حياة يومية أو حوادث تاريخية، إلى جانب بعض المناظر لأنواع الحرف والفنون التى يقوم بها الحرفيون المسلمون وقتئذاك) . (29)

2–7 مجالات استخدام التصوير الإسلامى : مارس الفنان المسلم نوعين من التصوير : التصوير الجدارى وتصوير المخطوطات ، ارتبط الأول بالزخارف المعمارية واقتصر على الموضوعات التى عرفت فى بلاد الشرق الأوسط قبل الإسلام مثل تمجيد الملوك ومناظر الصيد ، كما استخدمت زخارف الأشكال النباتية والطيور، ولم يعثر على أى أثر له قبل العصر الأموى ، واقتصر على جدران الحمامات والقاعات الخاصة ، حيث ازدهر فى هذا العصر ووجدت نماذج منه فى قصرى عمرة والحير الغربى.

وكانت معظم تلك الرسوم أقرب إلى الجد عنها إلى اللهو ، فقد كان التصوير بغرض التسلية وليس الإثارة ، " فلقد كان التصوير الإسلامى فى خدمة قصور الملوك التى كانت تعد بيوت المسلمين عامة، يسعى إليها الشاكى وذو الحاجة وصاحب المظلمة ومن أجل هذا كان لابد لتلك القصور أن تبدو أقرب إلى الجد منها إلى العبث والمجون، هذا ماتم استثناء الأجنحة الخاصة بالحريم. (30) أما تصوير المخطوطات فكان يعنى تزيينها بالصور التوضيحية الملونة ، وكانت تلك الكتب متنوعة فقد تكون أدبية (مثل دواوين الشعر والقصص الأدبية والتاريخية ، ومن الكتب العلمية مثل البيطرة والتنجيم والفلك والحيل الميكانيكية والأعشاب الطبية وغيرها، وكانت هذه المخطوطات مليئة بالصور الصغيرة ذات الألوان الزاهية الجميلة التى شدت اهتمام الدارسين الأوروبيين خلال القرن العشرين) . (31)

2–8 العصر العباسي وتصوير المخطوطات : تعود آثار التصوير الإسلامى إلى العصر العباسى وليس العصر الأموى ، وتشير المراجع التاريخية إلى أن المصورين المسلمين زينوا المخطوطات بالصور منذ القرن الثامن . لقد بدأ التصوير العربي فعليا مع ازدهار حركة التأليف والترجمة، حين اتجه أغلب المصورين إلي تزيين الكتب بالرسوم التعبيرية ، وبذلك تظافر التصوير والخط العربي في إنجاز روائع المخطوطات العربية، بداية من حكم السلاجقة لبغداد عام 1055 م، وبدأت التأثيرات الخارجية تعرف طريقها إلي الفن العربى، كما يمكن ملاحظة ذلك في مخطوط كتاب (الترياق) المؤرخ عام 1099 م، والمحفوظ في المكتبة الأهلية بباريس، إذ يضم رسوما تصغيرية فى غاية الأناقة التشكيلية، تحمل رمزية سحرية دخيلة على التصوير العربى، كما شهدت هذه الفترة ظهور الرسم التشبيهى بفعل التأثير المغولى .

2-9 الإعداد للمخطوطات : نظرا لتكلفتها العالية كان انتاج المخطوطات قاصرا على ورش العمل التابعة للحاكم ، فقد كان الولاة وعائلاتهم هم الرعاة الأساسيون لعمليات نسخ القرآن الكريم والكتب الأدبية الشهيرة ، وعندما يستقر رأى الراعى على منتج معين فإن هناك مايشبه ورشة العمل تقوم بتنفيذه حتى النهاية ، فالورشة مسئولة عن صناعة الورق المصنوع من شرائح الكتان والقنب ، ويقوم المسئول الأول عنها بتتبع كل مراحل العمل ، كما يتولى اختيار الناسخين والرسامين ، ويقوم بدور المدير الفنى الحالى فيضع تصورا للهيئة العامة للصفحة ، منتقيا مقاطع محددة من المتن لكى يتم التعبير عنها من خلال الرسوم ، ثم يقوم الناسخ – بعد تحضيره للحبر المصنوع من الكربون –بكتابة المتن تاركا مساحة محددة للرسوم وفقا لما حدد له ، وبانتهاء عملية الكتابة تمرر الأوراق إلى العديد من الرسامين ، حيث كان كل فنان يكلف برسم مشهد محدد وفقا لما هو بارع فيه ، لقد كانت الصفحة الواحدة نتاج جهود فنية كثيرة والمخطوطات هى نتاج عمل فنى جماعى ، كما كان يتم الإستعانة بالفنانين الناشئين للتعامل مع الخلفيات والمناظر الخارجية. وكانت الأصباغ تصنع من المعادن الطبيعية مثل الذهب والفضة واللازورد والرصاص والزئبق والكبريت ، وقد كان الزلال أو الغراء هو الوسيط الذى يحمل اللون مانحا اللوحات قدر من اللمعان ، وقد استخدم الصمغ العربى لاحقا وتحديدا بعد القرن السادس عشر معطيا مظهرا أقل لماعية . ثم يتم إضافة الزخارف إلى الصفحة ، والتى كانت تتمثل فى عناوين الفصول والإطارات الملونة كما تم عمل صفحات للبداية والنهاية ، وفى النهاية كان كل فرخ يتم صقله من خلال حجر صلب أو زجاج .وبعد ذلك كانت أوراق الكتاب تخيط وتجلد ويضاف إليها الغلاف الخارجى ، وكان التجليد يزخرف بنماذج بسيطة هندسية أو نباتية حتى القرن الخامس عشر .

2-10 سمات التصوير الإسلامى بشكل عام : يعد التصوير هو أحد فروع الفن الإسلامى ، وعلى الرغم من إنه تيار به كثير من الاستقلالية عن غيره من الفنون الإسلامية الأخرى نظرا لاعتماد مادته الأساسية على أشكال الكائنات الحية إلا أنه يمتلك مثالية الفن الإسلامى كاملة "فالصور زخرفية ، ذات ألوان مضيئة ، والأشكال الأدمية أو الحيوانية ترسم فى مجال البعدين ، كما ترسم الأشجار والأنهار والجبال والمنازل ، لا بقصد المحاكاة ، بقدر ما يقصد منها كمال التعبير الجمالى والتشكيلى ، وهى النظرية التى يسير على هديها التصوير المعاصر .

ويؤكد هذا المعنى دراسة حديثة 2014 أعدتها باحثة فى جامعة لوتزرن السويسرية تتعلق بالتصوير الإسلامى " مع وجود الكاميرا لم تعد الواقعية الفنية ذات جدوى من أجل توضيح الأحداث والمفاهيم ، ولذلك اتجهت الرسوم والأعمال الفنية نحو السوريالية والزخرفية والتجريد ، لقد حدث تبسيط للأشكال البصرية وصارت أكثر جرافيكية وأيقونية ، وفى السنوات الحالية هناك اهتماما متزايد بالرسوم الخطية واللون المصمت والمتدرج وكذلك الملمس ، وتغيرت القيم الجمالية التقليدية للمكونات البصرية مثل المنظور أو التناسب أو الإيحاء بالتجسيم وصارت أقل أهمية . لقد صار الهدف هو توضيح الفكرة أو المفهوم بأقل قدر ممكن من البيانات البصرية وفقا للفردية الفنية . (32)

ولقد قدم التصوير الإسلامى منذ قرون رؤية مختلفة للفن كانت مستمدة من الدين ، وهى رؤية تواكب الإتجاه العالمى الحديث ، بعد قرون طويلة من التجريب ، وبالطبع هذا لايعنى تقليلا للفنون الأخرى على الإطلاق ، فالفن الإسلامى هو فرع من تلك الفروع ، ولكن المعنى أنه فنا يبحث فى المطلق والمجرد وبالتالى هو يصلح لكل الأزمنة .

إذن اهمال المنظور هو إحدى السمات المميزة للتصوير الإسلامى " أن الصورة تضم عدة مفردات يتم جمعها فى غير اتساق بحيث يبدو كل منها فى منظور مختلف. (33)

وكذلك من زاوية التكوين الفنى فالأمر مختلف حيث " أن كل صورة تنقسم إلى موضوعات مستقلة يكاد كل منها يغنى بذاته ، ثم هى إلى ذلك تكون فى مجموعها شكلا متكاملا " . (34) كما أن هناك سمة أخرى تميز التصوير الإسلامى ، فالأشخاص دائما مايتخذون أوضاعا تقليدية ثابتة مع اختفاء الانفعالات من فوق الوجوه ، حيث تبدو الأشخاص بلا مشاعر ، وهو مايرجعه ثروت عكاشة إلى سببين أنها كانت تنتمى إلى فنون البلاط وبالتالى فهى فى حاجة إلى مساحة من الوقار ، بالإضافة إلى الرسوم التى تضمها المخطوطات الفارسية كانت متأثرة بالصور التى تغطى جدران القصور الساسانية الملكية حيث التعبير الإنفعالى يحتل مكانا ثانويا ليفسح المجال لمتطلبات الزخرفة البحتة .

ثالثا : مدرسة بغداد :

ظهر التصوير الإسلامى منذ عصر الدولة الأموية (750-661م) التى اتخذت من دمشق عاصمة لها وقد توسعت حتى وصلت إلى أسبانيا ، وقد كانت تلك العاصمة أحد مراكز الحضارة الرومانية والبيزنطية ، وتركز التصوير فى تلك الفترة فى الجداريات ولوحات الفسيفساء التى زينت بها المساجد والقصور ، ولكن مع الفارق أن القصور قد جملت بتصوير الكائنات الحية ذات الأسلوب المتأغرق على حين جاءت زخارف المساجد خالية من رسوم الشخوص وإن صورت المبانى ومناظر الطبيعة .

ومن أقدم لوحات التصوير الإسلامى التى تعود إلى تلك الفترة تلك الموجودة على الجدران الداخلية لقبة الصخرة ، وهو "أول عمل معماري واع لعظمته بل متباه بها ، انتهى من بنائها عام 72 هجرية - 692 ميلادية" (35)

إنها – فسيفساء قبة الصخرة – من الناحية الحرفية امتداد للفسيفساء البيزنطية في بلاد الشام والدولة البيزنطية، ولها العديد من الأمثلة فى كنائس بلاد الشام والعاصمة القسطنطينية، وأشهرها آيا صوفيا، وكنائس سالونيكا الإغريقية، غير أن فسيفساء قبة الصخرة ذات مواضيع معقدة في أصولها وكيفية اختيارها ومعانيها، فعلى خلاف النماذج البيزنطية التي تتشارك وإياها في التقنية، تركز لوحات قبة الصخرة على المواضيع اللاتمثيلية، وتحصرها بالكتابات القرآنية والتسجيلية وبالتوريق والزخارف النباتية، بعض الأشكال الغامضة اليوم، والتي ربما تكون تحويرا لتيجان ملوك ومستلزمات وظيفتهم من صولجانات ومجوهرات وما شابهها . (36)

وعلى الناحية الأخرى أتت اللوحات الجدارية الموجودة على جدران قصر عمرة لتمثل الجانب الأخر والخفى من التصوير فى تلك الحقبة ، ويعد قصر أو قصير عمرة "أثر يعود إلى الدولة الأموية يوجد فى الصحراء الأردنية تم اكتشافه عام 1898 ، وكان الأمر المثير للدهشة هذا الكم من اللوحات الجدارية ، حيث إن اكتشاف تلك اللوحات غير كثيرا من مفهوم العلماء عن التصوير الإسلامى فى تلك الفترة المبكرة ، حيث ظهرت شخصيات ملكية على ظهور الخيل تطارد حيوانات ، كما ظهرت نساء عاريات فى الحمام" . (37)

"وكان القصر قد تم بناؤه فى بداية القرن الثامن وهو بمثابة قلعة تأوى الحراس ومحل إقامة بعض الأمراء الأمويين ، وهو مجهز بقاعة للاجتماعات وحمام ملئ بالرسوم التصويرية على الجدران وهو مثال واضح على الفن المادى الذى كان سائدا فى تلك الفترة ". (38)

3-1 التصوير فى الدولة العباسية :

حلت الدولة العباسية محل الدولة الأموية ، واستمرت فترة زمنية طويلة امتدت نحو 500 عام (1258-750) ، وتنتمى أعمال التصوير التى تعود إلى تلك الفترة إلى مدينة سامرأ وليس بغداد ، والتى كانت لفترة زمنية محدودة (883-838) عاصمة للخلافة ثم فقدت أهميتها السياسية بعد ذلك ، ووجد بها بعض التحف المعمارية مثل قصر المعتصم والذى يعود إلى العصر العباسى الأول، ومن الأعمال الفنية التى تعود إلى تلك الحقبة لوحة جدارية تصور راقصتين فى ثياب كاملة تتقدم كل منهما فى اتجاه الأخرى فى حركة راقصة ، ومن الملاحظ أن الرسام قد اتبع فى تكوينه النمط المألوف فى الرسوم الساسانية والأشورية من قبل ، والتى تصور كائنين متظاهرين أو متواجهين وبينهما شجرة . (39)

3-2 مدرسة بغداد اولى مدارس التصوير الإسلامى : كانت مدرسة بغداد هى البداية لفن التصوير الإسلامى ، الذى تنقل بين الولايات المختلفة عبر أزمنة مختلفة ، فالفن الإسلامى حصيلة حضارات مختلفة وظروف تاريخية متنوعة، "فالعرب على سبيل المثال طبقوا معارفهم فى مجال الرياضيات عندما التعامل مع الزخرفة الإسلامية، كما ساهم الأتراك بنصيب كبير فى الفن الإسلامى ورسالته الروحية، ولاسيما أنهم حكموا العالم الإسلامى لفترة زمنية طويلة امتدت من القرن العاشر إلى القرن التاسع عشر ، كما كان الفن والأدب الفارسى مصدار أساسيا لتطور الفن الإسلامى من رسم وعمارة وفنون إسلامية زخرفية، وفى شبه القارة الهندية ساهم الحكام المغول فى تشكيل الفن الإسلامى فى مجال العمارة سواء كانت الدينية أو العامة، وكذلك فى فن المنمنمات miniature art والفنون الزخرفية ولوحات المناظر الطبيعية" . (40)

وعلى الرغم من أن بعض الباحثين يذهبون إلى القول بأن المسلمين عرفوا الرسم على الورق منذ القرن الثانى الهجرى فإن ماوصلنا من تلك الرسوم لايعود بتاريخها لأكثر من أوائل العصر العباسى وربما أواخر العصر الأموى وتقدم مدرسة بغداد المثل المتكامل

لهذا الفن من حيث وحدة الشخصية الفنية فيها ومن حيث كونها المنطلق الرئيسى الذى تسربت منه أساليب تصوير المخطوطات الأدبية والعلمية إلى باقى البلاد الإسلامية . وقد استقرت تسميتها على مدرسة بغداد على أساس ما كان لبغداد من قيمة حضارية فى تلك المرحلة المرحلة من التاريخ التى تمتد مابين القرنين السادس والثامن للهجرة . (41)

وقد ازدهرت مدرسة بغداد بين القرنين السادس والثامن للهجرة ، ووفقا لما ذكره زكى محمد حسن أن الاستعانة باعمال التصوير الملونة فى أعمال المخطوطات فن حملت بغداد لواءه فى القرنين السادس والسابع الهجريين وازدهر فى أماكن أخرى أيضا ، فعرفته الموصل والكوفة وواسط وغيرها من بلاد الرافدين ، كما امتد إلى إيران ومصر والشام . (42)

3-3 مخطوطات مدرسة بغداد : تركز نشاط مدرسة بغداد فى انتاج المخطوطات المختلفة ، والتى تنوعت مابين المخطوطات الدينية والأدبية والعلمية ، وكان من ضمنها نسخة عربية من إنجيل طفولة المسيح تعود إلى 1299 م .

ومن أهم الأعمال الأدبية كتاب كليلة ودمنة ، والأغانى لأبى فرج الأصبهانى وكذلك نالت مقامات الحريرى التى كتبت فى القرن السادس الهجرى اهتماما خاصا .

وفى المجال العلمى كان هناك تنوعا شديدا فى الانتاج مثل كتاب مختصر لرسالة أحمد بن حسن الأحنف (كتاب البيطرة) وهو يتناول أمراض الخيول وطرق معالجتها ، والترجمة العربية لكتاب الحشائش (أو خواص العقاقير) لديسقوريدس ، وهو يقدم رسوما لأطباء يقومون بتحضير بعض العقاقير أو يقومون بإجراء بعض العمليات الجراحية ، وكذلك رسم وزخرفة الترجمة العربية لكتاب الترياق لجالينوس الذى يضم 31 صفحة مصورة لأشكال النبات مع صور لأطباء مع تلاميذهم . كما ظهرت أيضا المخطوطات التى ترتكز على النواحى العلمية مثل كتاب الحيل الميكانيكية لإبن الرزاز الجزرى والذى استغرق 25 عاما من مؤلفه لاتمامه ، وهو يشتمل على وصف أنواع الألات المختلفة.

3-3 سمات مدرسة بغداد :

كان نشاط هذه المدرسة منصبا على المخطوطات ، حيث انتجت رسوما توضيحية للمتن ، أما بالنسبة إلى القائمين عليها فقد كانوا فنانين من أتباع الكنيسة المسيحية الشرقية أو من المسلمين الذين تأثروا بها كثيرا . (43)

ما كانت الكائنات الحية هى ركيزتها الأولى ، وكانت تتصف بـ " كثرة الرسوم الآدمية ذات السحن العربية ، باعتبار أن الإنسان هو محور هذا الفن (..) بأسلوب موروث عن الشرق القديم لا يهتم بالنسب وبابراز التعابير والإنفعالات بشدة ولا يراعى المنظور الغربى ، بحيث لا تحوى التصوير غير بعدى الطول والعرض . (44)

وهى اكثر المدارس الأربع تعبيرا عن الشخصية العربية ، فهى عربية أكثر منها إيرانية فى ملامح الأشخاص، إلا أن هناك بعض التأثيرات الدخيلة فالأشخاص تلوح عليهم مسحة سامية وتغطى وجههم لحى سوداء، كما تستخدم أكاليل النور حول رؤوس الأشخاص والملابس المزركشة والمزينة بالأزهار والملائكة ذوى الأجنحة المدببة وهى أساليب فنية مأخوذة من فنون الكنيسة المسيحية الشرقية فى الشرق الأدنى .

ويضيف دكتور ثروت عكاشة ان تلك الوجوه صارت تصور أنماطا معينة وليس أشخاص بعينهم وفى رسالة علمية حديثة توصل الدارس إلى وجود صفات مشتركة بين المدرسة العربية فى التصوير وأعمال بيكاسو الفنية " حيث الاختزال فى الخطوط والألوان والتعابير، وكذلك فى التكوين العفوى ، فضلا عن التعاطى مع خلفية اللوحة التى تمثل سطحا لونيا لا يحمل أية دلالة تصويرية" .

كما إن الشخص الرئيسى فى المشهد يتم تصويره بحجم أكبر من غيره ممن هم أقل منه شأنا هذا إلى توفيق هذه المدرسة فى تصوير مجموعات الناس مع تنوع وضعاتهم ، ووضع كل شخص فى مرتبته رفعة وضعة .كما أن من سماتها أيضا تجاوز الواقع " وهي إحدى تقاليد المدارس الإسلامية التي جاوزت حدا أصبحت معه لا تقنع بتسجيل زاوية النظر وحسب، بل تطمح إلي إراءة حيز المكان بشكل جامع ، وهي في حالة تلتقي برسوم الأطفال وترتبط بها حسب المقاييس الفنية بأكثر من وشيجة (...) واعتماد الفنان المسلم علي الحقيقة الظنية للأشياء، متجاوزا الحقيقية العينية والبصرية الماثلة أمامه، إلي ما لا يراه الرائي، فهو حين يرسم النهر مثلا، يتجاوز ذلك إلي رسم أنواع الأسماك الموجودة فيه ". (45)

ونظرا لأنها رسوم توضيحية تعبر عن موضوع ما فقد تجاوز الرسام عنصرى الموضوعية والمحاكاة و"اعطى الرسام لنفسه الحق فى تجاوز العوائق التشكيلية التى يفرضها العقل ، واللجوء إلى الحدس مستقلا عن الطبيعة .

وبالنسبة إلى تصوير الحيوانات فقد أجادت هذه المدرسة كثيرا وخصوصا عند تصوير الخيل الأبل التى تعيش فى البادية العراقية ، فأبدعت فيه أى إبداع لا سيما حين ساقت مشاهد من قوافل متراصة متتابعة من الأبل ، ولا شك أن إجادة مصورى مدرسة بغداد لتصوير الحيوان قد ألت إليهم عن أسلافهم فنانى بابل وأشور ثم عن الفنانين الفرس" أما بالنسبة إلى تصوير النبات فقد مالت إلى التجديد الشديد "وأدى ذلك إلى الخروج عن الحقيقة المرئية للنبات ، غير أنه على الرغم من هذا فثمة رسوم نباتية جاءت محاكية للطبيعة .

رابعا : الواسطى :

من الأسماء القليلة المنتسبة إلى مدرسة بغداد : عبدالله بن الفضل والواسطى ، حيث وضع الأول رسوم كتاب خواص العقاقير أو الحشائش ، حيث الرسوم لأطباء يقومون باعداد العقاقير أو يجرون بعض العمليات الجراحية ومن الناحية الفنية " ويبدو التأثير البيزنطى واضحا فى كل الصور وهو الكتاب الذى ضم ثلاثين صورة موزعة بين متاحف العالم . وتعود ندرة أسماء الفنانين المعروفة لأن " كثير من الأعمال الفنية الإسلامية المتقنة الصنع لم يفطن صانعوها أو يسمح لهم بالتوقيع على هذه الآثار الفنية" (...) إلا أن بعض الأعمال كانت استثناء لذلك "كالتحف المعدنية المصنوعة فى الموصل ، أو بعض الخزف المصرى فى عصر الفاطميين والمماليك، أو فى كثير من الصور الإيرانية والهندية منذ القرن السادس عشر" . (46)

4-1 الواسطى : بقليل من المداد الأسود وبقليل من بقايا حرق ألياف الكافور ومزجها بزيت الخردل وبقليل من الألوان التى كان يقوم أحيانا بنفسه فى تحضيرها استطاع الواسطى أن يتبوأ مكانة عالية فى تاريخ الفن العالمى (47) ولقد اعتبره المستشرق الفرنسى إدجار بلوشيه والمتخصص فى المخطوطات الشرقية من العلامات الفنية المميزة "إستطاع أن يأتي بأروع ما أنتجته المدرسة البغدادية، وهذا يعطي الانطباع أن هذا الإنتاج الفنى هو أحسن ما يمكن أن يشار إليه بالنسبة لذلك العصر. وأسمه هو يحيي بن محمود بن يحيي بن الحسن الواسطى ، ولد فى بلدة واسط جنوب العراق ، وقد كان مثقفا واسع الإطلاع ، عمل لدى الخليفة المستنصر بالله العباسى مابين 1242-1258 ، وقد عاصر كثير من المفكرين والعلماء مثل ابن الأثير وابن الرزاز الجزرى وياقوت الحموى وغيرهم ، وقد عرضت أعماله في مكتبات الجامعة المستنصرية ببغداد، وتسابق المقتنون على اقتنائها في الأندلس والمغرب العربي؛ ولاسيما ملوك الموحدين في مراكش. وقد عاش الواسطى فى زمن تفكك الدولة العباسية وقت السيطرة السلجوقية ، وقد عبر فى رسمه عن الطابع العربى فى الزخرفة والملابس ، حيث أنه مثل روح المنطقة العربية فى القرن الثالث عشر .

4-2 المقامات : تكاد المقامة أن تكون لونا من ألوان القصة ولكن لا يولى كاتبها اهتماما كبيرا بتطور الحدث ويميل كثيرا إلى استعراض مهارته اللغوية إلى درجة أن المعنى نفسه قد يصعب فهمه على المتلقى ، وقد كانت تتخذ هيئة الندوة عند بداية ظهورها حيث يجتمع الناس للاستماع لموضوع معين ويتصدرها الأديب معقبا على حادث أو عارضا لحادثة محدثا بالعبارات الموجزة البليغة الصياغة . (48) وعند ذكر المقامات يذكر على الفور الهمذانى والحريرى "إنهما الشخصيتان اللتان احتكرتا فى الأدب العربى الأهمية المتزايدة فى هذا المجال الأدبى" حيث أعطاها الأول " تلك الملامح التى عرفت بها ، حين أخرجها من نطاق الحادث المحدود إلى شكل القصة المتتابعة الأحداث النابضة بحوار الشخصيات ، والتى ترسب فى ذهن قاؤئها أو المستمع إليها عبرة تنبع من تماسك حلقاتها ، لا من الحكم والأفعال المنبثة بين ثناياها .

أما الثانى فهو أبا القاسم بن علي الحريري المولود فى البصرة (1054-1122م) والذى اعتمد على شخصية الراوى "الحارث بن همام " الذى بدوره بسرد مغامرات بطل المقامات "ابو زيد السروجى" الشخص واسع الحيلة والذى يتنقل من مكان لأخر فيصور عبر خمسين مقامة صورا مختلفة للأشخاص والأماكن والأحداث التى يمر بها بأسلوب ساخر حينا وجاد حينا أخر.

4-3 أهمية الواسطى : قام الواسطى فى القرن الثالث عشر بعمل رسوم لمقامات الحريرى وتحديدا فى عام 634 هـ (1237 م) ، من خلال 100 منمنمة تعبر عن خمسين مقامة ، وكان هذا أول عمل فى التصوير العربى يعرف أسم مبدعه. وأهمية النص

والصور تتركز فى أنها وصف دقيق للحياة الإجتماعية فى القرن السابع الهجرى ، وتعكس كل مظاهر الحياة من أنماط العمارة والأدوات المستخدمة .ومن المعروف أن هذه المقامات لاقت شعبية واسعة من قبل الجمهور والفنانين ، وقد تبقى منها12 مخطوطة محفوظة فى مكتبات مختلفة ، وتعد مخطوطة (شيفر) المخطوطة الأهم والتى تعود إلى الواسطي ، الذي أنجزها سنة 634هـ/ 1237م وتعد أفضل ما أنتجته مدرسة بغداد ، فالواسطى تجاوز مرحلة الرصد ، وعمل في تصاويره "الى فضح مظاهر الحياة اليومية التي كان يعيشها الناس، وأبرز حال التناقض الحاد بين الغنى والفقر، بين قيمة العمل وحياة اللهو، بين الحاكم والمحكوم، بين العبد والسيد، بين الحق والباطل، وهو من وراء ذلك أراد أن يقدم شهادته على عصره.

4-4 الواسطى الأفضل حظا : من الجوانب السلبية التى تصادف المتخصص فى تاريخ الفن الإسلامى صعوبة الاستدلال على صانع العمل الفنى فى كثير من الأحيان ، على عكس ما ماحدث مع الشعر ، وهذا" ربما يعود الى النظرة المتوارثة عند المسلمين عن استهجان الرسم والنحت والقول بتحريمهما وحمل اعمال الرسامين والمزخرفين على محمل التزيين العرضى لباب دار او سقف او غرفة او واجهة عمارة مما استوجبتها حياة الترف والبذخ التى عمت ايام العباسيين, وكذلك ما استخدم من رسوم لتزيين الكتب" (43) ، ولهذا يعد الواسطى أكثر الفنانين المصورين حظا ، حيث دون فى نهاية مخطوطات مقامات الحريرى مايثبت إنه صانع رسومها : فرغ من نسخها العبد الفقير الى رحمة ربه وغفرانه وعفوه يحيى بن محمد بن ابى الحسن بن كوريها الواسطي بخطه وصوره آخر نهار يوم السبت سادس شهر رمضان سنة اربع وثلاثين وستمائة .

5-4 سمات فن الواسطى : استطاع الواسطى الذى تناول مقامات الحريرى وقام بالتعبير عنها بصريا من خلال بطلها أبو زيد السروجى ذو النظرة العميقة للحياة والذى يتنقل كثيرا ومتخفيا فى هيئات مختلفة ، ومن خلال النص والرسوم يمكن للمتلقى التعرف على الكثير من ملامح المجتمع فى العهد العباسى ، حتى أنه تعرض للمرأة العربية واستعرضها فى مواقف مختلفة وأزياء متعددة ، وقد قام بالتعامل مع تلك المعطيات من خلال اتباع عدة أساليب فنية :

* استطاع الواسطى التعامل مع الفنون السابقة عليه مثل الفارسية والبيزنطية والمسيحية والساسانية بل حتي الآشورية والظهور بشكل فنى جديد يحمل شخصية مميزة ، وقد استعان بنص أدبى لاينتمى إلى زمانه وقام بالتعبير عن أحوال المجتمع أفضل من النص الأصلى نفسه من حيث تصوير الأشخاص وملابسهم وطريقة معيشتهم.

* لم يستخدم الواسطى المنظور المتعارف عليه فهو لجأ إلى وضع العناصر الأكثر أهمية فى الصدارة وتأكيدها بعوامل مختلفة مثل الحجم أو اللون (49))، كما أنه عبر عن العمق فى لوحاته من خلال من خلال اللون والدرجات المشرقة والمعتمة.

* لم يستخدم سوى عدد محدود من الألوان ، إلا أن يضعها متجاورة بشكل صحيح مما يعطى الانطباع بكثرتها .
* كان يقوم بتقسيم الصورة إلى حزئين أو أكثر من أجل بيان الفارق الإجتماعى أو تعبير عن إزدواجية أحد المواقف .
* كان عندما يصور الحيوان يكون أكثر التزاما بالواقع ، على عكس مايحدث عند التعامل مع الرسوم الأدمية حيث يجنح "عند رسمه للأشخاص إلى تجاهل الحدود النسبية للأشكال ليفسح بذلك المجال لبروز تعبيرية تلك الأشخاص عن نفسها بدقة .

نتائج البحث : 1- يحتاج فن التصوير الإسلامى لمزيد من الإهتمام من قبل المتخصصين لوضعه فى المكانة اللائقة مع غيره من أفرع الفنون الإسلامية الأخرى.

2- انقسم التصوير الإسلامى إلى فئتين : الرسوم التى تزين القصور ، وقليل منها ماتبقى ، وهى ذات قيمة وشخصية أقل كثيرا من الرسوم التى ارتبطت بالمخطوطات ، تلك الرسوم التطبيقية محددة الملامح والمعبرة عن بيئتها ، وتقدم مايتماشى مع جوهر العقيدة الإسلامية .

3- أن الفن بطبيعته البصرية يعد لغة عالمية ومؤثرة ، والتصوير الإسلامى من الممكن أن يقدم للعالم الغربى صورة متحضرة تكون ذات تأثير أقوى من المال أوالموقع الإستراتيجى .

4- أن التصوير الإسلامى متمثلا فى مدرسة بغداد قدم فنا عالميا ذو شخصبة مستقلة ، وكان بداية مدارس التصوير الإسلامى الأخرى والتى تمثلت فى الفارسية والتركية والمغولية ، وهى الأخرى تستحق وضعها فى مكانها اللائق.

5- أثبت الواسطى ومنذ زمن طويل قدرة الصورة الفذة على التوثيق ، حتى أن المعالجة البصرية للنص بعد سنوات طويلة من كتابته كانت ذات تأثير أكبر من تأثير النص بمفرده حتى ولو كان معاصرا.

6- يميل الفنان الشرقى الأن نحو التجريدية بعد استقرار الغرب عليها مؤخرا ، متناسيا الخبرات المتراكمة فى هذا الشأن والتى توصلت إليها فنون التصوير الإسلامى بشكل عام ، ومتناسيا حضارات أخرى مثل الصينية استفادت من تراكم خبراتها الفنية .

المراجع

(1) Khawaja Muhammad Saeed , (February , 2011) Islamic Art and Its Spiritual Message , International Journal of Humanities and Social Science, Vol. 1 No. 2. Page 227.
(2) Suzan Yalman , The Birth of Islam
http://www.metmuseum.org/toah/hd/isla/hd_isla.htm
(3) The Metropolitan Museum of Art, Department of Islamic Art
http://www.metmuseum.org/toah/hd/orna/hd_orna.htm
(4) Khawaja Muhammad Saeed , (February , 2011) Islamic Art and Its Spiritual Message, Page 228.
(5) محمود ذهبية ، (أكتوبر ، 2013) ، فلسفة الفن الإسلامى ، مجلة معارف ، العدد 14. ص 181
(6) باسم دحدوح ، (2010) ، التصوير عند العرب والمسلمين بين الإباحة والتحريم (فى العصور الوسطى) ، مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية ، (المجلد 26، العدد الأول) . ص ص 337-338 .
(7) Wendy M.K. Shaw, (June, 2012) , The Islam in Islamic art history: secularism and public discourse, Journal of Art Historiography, Number 6. page 1.
(8) https://www.khanacademy.org/
(9) https://www.britannica.com/topic/Islamic-arts
(10) Rabah Saoud, Introduction to Muslim Art and Ornaments.
http://www.muslimheritage.com/article/introduction-muslim-art-and-ornaments>
(11) https://www.britannica.com/topic/Islamic-arts
(12) https://www.britannica.com/topic/Islamic-arts
(13) http://www.metmuseum.org/toah/hd/orna/hd_orna.htm
(14) http://www.metmuseum.org/toah/hd/orna/hd_orna.htm
(15) محمود ذهبية ، (أكتوبر ، 2013) ، فلسفة الفن الإسلامى ، مجلة معارف ، العدد 14. ص 180.
(16) جمال محمد محرز ، 1962 ، التصوير الإسلامي ومدارسه، القاهرة ، وزارة الثقافة .

(17) أحمد عبد الكريم ، (يوليو، 2007) ، جماليات التصوير العربى عند الواسطى ، مجلة إيلافhttp://elaph.com/Web/Culture/2007/7/247314.htm?sectionarchive=Culture

(18) http://www.metmuseum.org/toah/hd/orna/hd_orna.htm

(19) وفاء إبراهيم ، 1996 ، فلسفة فن التصوير الإسلامى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة

(20) ثروت عكاشة،2001، تاريخ الفن: العين تسمع والأذن ترى، موسوعة التصوير الإسلامى، بيروت ، مكتبة لبنان. صفحة ش

(21) جمال محمد محرز ، 1962 ، التصوير الإسلامي ومدارسه، القاهرة ، وزارة الثقافة .

(22) أحمد عبد الكريم ، (يوليو، 2007) ، جماليات التصوير العربى عند الواسطى ، مجلة إيلافhttp://elaph.com/Web/Culture/2007/7/247314.htm?sectionarchive=Cultu

(23) ثروت عكاشة ،2001، تاريخ الفن: العين تسمع والأذن ترى، موسوعة التصوير الإسلامى، بيروت ، مكتبة لبنان. صفحة ص

(24) أبوصالح الألفى ، الفن الإسلامى ، أصوله، فلسفته، مدارسه (ط 4) . القاهرة : دار المعارف ، ص77

(25) زكي محمد حسن ، 2013 ، التصوير وأعلام المصورين فى الإسلام ، القاهرة ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، انظر صفحتى 11 ، 12 .

(26) ثروت عكاشة ،2001، تاريخ الفن: العين تسمع والأذن ترى، موسوعة التصوير الإسلامى، صفحة (ف)

(27) أبو الحمد محمود فرغلى ، 1991 ، التصوير الإسلامى، نشأته وموقف الإسلام منه وأصوله ومدارسه، القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية. انظر صفحات 17-21 .

(28) محمد بركات مراد ، (2010) ، التصوير والزخرفة الإسلامية ، مجلة المسار ، العدد 33 . ص 73

(29) أبو الحمد محمود فرغلى ، مرجع سابق. صفحة 9.

(30) نعمت إسماعيل علام (1989). فنون الشرق الأوسط فى العصور الإسلامية (ط.6) . القاهرة : دار المعارف. ص 30.

(31) أحمد عبد الكريم ، (يوليو، 2007) ، جماليات التصوير العربى عند الواسطى ، مرجع سابق.

(32) Celebi, Duygu.(2014) . Ottoman Miniature Art. Master Thesis, Lucerne University, Switzerland.

(33) ثروت عكاشة (دكتور) موسوعة التصوير الإسلامى، مرجع سابق، ص ص (24-25)

(34) ثروت عكاشة (دكتور) موسوعة التصوير الإسلامى، مرجع سابق، ص ص (25-24)

(35) خالد عزب ، الرمزية السياسية للعمارة .. العمارة لغة للحوار الحضارى ، http://www.cmiesi.ma/acmiesi/file/notes/khalid-azab_1.pdf ص307

(36) خالد عزب ، الرمزية السياسية للعمارة ، مرجع سابق

(37)www.metmuseum.org/exhibitions/listings/2012/.../qusayr-amra

(38)http://whc.unesco.org/en/list/327/documents/

(39) ثروت عكاشة (دكتور) موسوعة التصوير الإسلامى، مرجع سابق، ص (73)

(40) Khawaja Muhammad Saeed , Islamic Art and Its Spiritual Message , Page 227.

(41) بلندر الحيدرى ، (يونيو ، 1995) الواسطي رسم مقامات الحريري فاختصر الفنون الإسلامية ، مجلة نزوى

(42) عفيف عثمان ، (سبتمبر ، 2012) ، مدرسة بغداد فى التصوير الإسلامى ، الواسطى وغيره، جريدة الحياة http://www.alhayat.com/Details/439346.

(43) زكي محمد حسن، التصوير وأعلام المصورين فى الإسلام ، مرجع سابق . ص 13.

(44) محمد الشبيب ، تأثير المنمنمات الإسلامية فى لوحات بابلو بيكاسو مجلة جامعة دمشق للعلوم الهندسية المجلد التاسع والعشون العدد الثانى 2013 ص 701

(45) أحمد عبد الكريم ، (يوليو، 2007) ، جماليات التصوير العربى عند الواسطى ، مرجع سابق.

(46) زكي محمد حسن، التصوير وأعلام المصورين فى الإسلام ، مرجع سابق . ص 14.

(47) بلندر الحيدرى، الواسطي ، مرجع سابق .

(48) ثروت عكاشة (2016) ، فن الواسطى ، من خلال مقامات الحريرى . القاهرة : دار المعارف. ص 5

(49) ثروت عكاشة ، فن الواسطى ، مرجع سابق. ص 13